الإسلام والمشاركة الحضارية

بداية أقول إن الإسلام أقر الأديان السماوية قبله وهى ميزة انفرد بها. ونبعة تسامح تحفظ عليه بشره وقوته وسط كل الظروف.

إن اعترافه بالأديان الأخرى، قفل باب الردة عنه... إذْ فيم الرجوع وإلى أين؟

إلى المسيحية؟ إنه يعترف بها

إلى اليهودية؟ إنه يعترف بها فى صورتها الأولى فإن العالم (ديفو) الذى كتب مقدمة سفر التكوين سجل أن التوراة كتبت بعد نزولها بنحو ٩٨٠ سنة وماوراء هذا من دلالات.

ولعل هذا سر تمسك المسلم تمسكا غريبا بالإسلام، حتى ليستحيل تحوله إلى دين آخر، بينما يدخل أهل الأديان الأخرى فى الإسلام بما يعلمون عن تآخيه وبساطته وصدقه. إن الإسلام لايرفض إلا الإلحاد... وهو حين اعترف بالكتب السماوية يعلن فى الوقت نفسه، رفضه، الإلحاد فالملحدون فى رأيه وتعبيره، لايساوون عند الله، جناح بعوضة (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب.) سورة الحج الآية ٧٣.

وغير هذا عنصرية اليهود... إنها قبلية هابطة، فأن يكون الله إلههم وحدهم. وأن يكونوا هم شعبه المختار، وغيرهم شعبه المحتار، نظرة طبقية قبلية منافية للإنسانية كما أسلفت بينما الإسلام دين الفطرة... والمسلم كل من أسلم وجهه لله وهو محسن ومن هذا المنطلق، اعتبر الإسلام كل من سبقوه... كل ممن سلمت فطرتهم وأعمالهم، مسلمين.

(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) سورة النساء الآية ١٢٥

وقبل أن أتناول الإنجازات العلمية لهذه الحضارة، أقول إنها حضارة إنسانية حتى حين اضطر إلى الحرب دفعا لظلم أو درءا لعدوان ماكان يحوطها بالتشريع ويضع لها من

التقاليد والحرمات مايليق بدين الشرائع المثلى.. فهو يحرم التمثيل بالميت أو قتل النساء والأطفال أو بقر البطون، مما ترتكبه الحروب الحديثة على الرغم من التشدق بحقوق الإنسان ومبادئ السلام.

حضارة إنسانية حين توهج بحب الحياة فاعترف بمتاعها ومتعتها. أقر زينتها وطيباتها وطيوبها فلا انطوائية ولاقوقعة ولازهد. زهاده اختيار، وأسلوب شخصية.

الإسلام أنيق يحب الجمال والزينة والنظافة... أوجب طهارة الجسم كالروح.. وزكّى الطِّيب والخضاب، وأباح التزين، وأتاح المتعة فى غير حرام، وأوجب الوضوء والاغتسال... فكان نظاما جامعا للدين والدنيا.

ويفرض هذا نصا.. وطقسا.. ثم بالإيحاء أو الاقتداء حين يبثه فى ثنايا أقوال ومعان **كثيرة**، ولكن دون سرف.

إنه دين الفطرة وقد شرح ابن طفيل المسألة عقلانيا، ولكن التجربة الدينية: بصيرة... انفتاح... التجربة الدينية لاتعادى العقل، ولكنها أبعد منه، مدى... إن الخلد عندها لايعنى استمرار الزمن، ولكن يعنى ماوراء الزمن... إن **التوحيد** فى الإسلام سر البطولة فالقول «لاغالب إلا الله» ليست تميمة ولكن عقيدة... فيه سمو على الأشياء، وعلو على الصفات... يصف العابدون مايصفون، ثم يظل أكبر... ليس كمثله شئ.

هكذا رفع الإسلام راية **الحرية والإخاء والمساواة**، قبل الدساتير الحديثة فى الغرب بعدة قرون.

الإسلام حضارة إنسانية يوم ترفق بالإنسان فلم يكلف نفسا إلا وسعها حتى الوحدانية، اكتفى فيها بإشارة السبابة إلى السماء، ولم يحطها بتعقيد أو التواء.

الصلاة اكتفى فيها بالإيماء إذا شق على المؤمنين القيام والقعود...

الصوم أباح الإفطار فى حالتى المرض والسفر...

بل أباح المحظورات عند الضرورات.

كيف التقت البساطة فيه بالعمق؟ إنها سره

الوضوء فى الإسلام وضاءة نفس قبل أن يكون غسل الأطراف. والصلاة صلة بين المحدود «الإنسان» وبين الكمال المطلق «الله». ولعل هذا، السر، فى فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم، لعل واحدة منها تنجح فى تحقيق هذا المعنى.

الصلاة فى الإسلام تطهير للذات، وانفتاح بها للنور وعلى النور... ورفع اليدين فى الصلاة استشراف إلى العالى... إلى السامى فى عملية مجاهدة وخلوص والسجود، سجود القلب حين يتجرد من الصلف ويقول الساجد (سبحان ربّى **الأعلى**) ولو كان ملكا أو امبراطورا... بينما فى الركوع يقول سبحان ربّى العظيم...

حرص الإسلام على «**الخلوص**» تمكينا لحواس النفس الداخلية أن تمنح من الأعماق.. أو تنهل من الأشواق الروحية.

الإسلام **صلاته صلة... وبره محبه... وزكاته تكافل مشروع وحق معلوم** وحنان على اليتامى وعتق الرقيق والوفاء بالعهد والصدق فى القول والعمل.

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) سورة البقرة الآية ١٧٧

حتى النواهى فيه أنفع مايمكن من قيود الحق والمصلحة العامة والخاصة المشروعة حفاظا على الشخصية الإنسانية.

(ولاتصعّر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك)

وقوله جل شأنه (ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا.. ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا).

ومن إنسانية الإسلام أن **الآيات – فى بذل المال – تشمل الإنسان مسلما أو كتابيا** يقول أبو يوسف صاحب كتاب الخراج الذى يفسر الآية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) بأن الفقراء هم فقراء المسلمين والمساكين هم فقراء أهل الكتاب. ثم حث على العطف عليهما معا حبا وكرامة فقال تعالى: (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب).

الإسلام حضارة إنسانية يوم احترم الانسان حتى فى آخر السلم الاجتماعى فيقول سبحانه:

(إن تبدوا الصدقات فنعما هى، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم.)

الإسلام حضارة إنسانية يوم حنا على الخطأ ففى الحديث الشريف: (من عمل فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران).

وهى دعوة للمحاولة والاجتهاد مع جواز خطأ التجريب.

الإسلام حضارة إنسانية بل ثورة إنسانية حين جعل العبادة لله وحده مما أطلق حرية الإنسان مادام لا إله إلا الله.

هذا المعنى يجب أن تلتفت إليه التربية فى البيوت والمدرسة لتستقيم النشأة ويستقيم الإنسان... لأن المرء حين يتجوف من المعنى، أو يتخوف من مخلوق مثله، أو يتخوى من القيمة، فهو خاوٍ خابٍ ولاتستوى الظلمات والنور.

لقد غلبوا الفرس والروم **لا** بالسيف، فما عند الروم والفرس من السلاح أكثر ولكن **بالتوحيد**... وليس التوحيد كلمة لا إله إلا الله تقال حرفية أو ببغاوية ولكن رؤية رائعة.. مادام لا إله غيره، ولاقوى غيره ولاسلطان غيره فلايخشى غيره... وماعداه صغير وضعيف ومقدور عليه.. ولولا هذا لتهيبوا الامبراطوريات ولخافوا الأباطرة.

الإسلام ثورة ثقافية: حين أعاد بناء الإنسان بدءا بالإنسان البدوى الجاهلى.

وهو ثورة ثقافية وإنسانية معا حين رفع كرامة المرأة بعد الوأد... وهو ثورة ثقافية حين دعا إلى النظر الرحيب فى الكون والنفاذ إلى ابداعه واتساقه الغريب.

القرآن عنده صفاء فى تفهم الإنسان.

(وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا)

معادلة صعبة وصل بها القرآن إلى ذروة من رغبات بشرية البشر ونزعات الخير فى الإنسان.

و(نصيبك) هنا أى ماتحتاج إليه لا الاستيلاء على مال الآخرين.

الإسلام حضارة يوم انتهج أسلوبا فى الحياة هو نمط سلوك من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء... فجعل «**الاتقان**» فى العمل، قربى إلى الله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

الاسلام دين الاتقان تجويدا للقرآن.

وتجريدا للخط العربى حتى غدا تسعين قلما

الإسلام حضارة إنسانية يوم ركـز على **المساواة**. حـارب الإسـلام، العلو فى الأرض... فالمساواة دعوته (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) بينما الأمم المتحدة اليوم تعترف بشريعة الغاب يوم أعطت الدول الكبرى (حق الڤيتو) لمجرد أنها قوية أى مرخص لها بالبطش والافتراس. ومن يعترض تستعمل «حق» الڤيتو أو استثناء الڤيتو بتعبير أصح...

الإسلام حضارة إنسانية فى موقفه من المرأة موقفا متحضرا واسع الأفق، إنسانى النزعـة والفكر والشـعور... وضـعهـا فى إطار واحـد مع الرجل فى التكليف والمسـؤليـة والإرادة والتصرف. بل أمر الله، الرسول أن يبايع النساء وهذه المبايعة من فروع استقلال النساء فى المسئولية والرأى والاختيار.

حدث هذا فى القرن السابع الميلادى حين تكافح المرأة الحديثة للحصول على حق الانتخاب فى الشرق والغرب... وعدّ حصولها عليه فى البلاد التى أقرته، تقدما ورقيا.

أعطى الإسلام المرأة حق البيع والشراء وحرية التصرف فى مالها وجعل موافقتها شرطا فى صحـة الزواج ونوه بدورها فى التاريخ، وسدادها فى الرأى، وقدرتهـا على التفكير والتدبير... أعطاها حق الاحتفاظ باسمها بعد الزواج..

لقد منح الإسلام المرأة من الحقوق مالم تسلم، لها، به، أوربا حتى اليوم.

الإسلام حضارة إنسانية يوم دعا إلى التفكير والتأمل. ليس فيه ضعف يخيفه ويخفيه بتحريمه المناقشة.

الإسلام حضارة إنسانية فى وقفته الواعية بالخلفيه الروحية بالوجود تلك الخلفية التى غابت عن الوعى المعاصر.

ترى الله حياة الحياة، أى السر الأسمى لها.

وترى إبداع الكون، فى اتساقه الغريب.

ومن ثم، حققت هى الاتساق فى أسلوبها

كانت المدارس الدينية «الشافعية – المالكية – الحنفية» تدرس مع علوم الدين: الفلك – الهندسة – الموسيقى... وهى رؤية فى العلاقات المتجـانسه بين العلم والدين والفن يسمونها «العلاقات الفاضلة».

وانطلاقاً من هذا الأفق، حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذى ينمى ويضيف.

الإسلام حضارة حين ربط الإنسان بالكون الرحيب ولم يحصره فى ركن واحد تحت اسم العلم أو المادة أو العصرية. يقول جيرالد هيرد فى كتابه The Third Morality «القيمة الخلقية الثالثة»: (إن الغرب تعس ومتخلف بتحكيم القانون العلمى فى كل شئ حتى غدا الإنسان آلة قابلة للتحكيم والتحكم. ومادام كل شئ (ماكينه) فكل شئ لاهدف له ولا أخلاق له ولاقيم له.)

الإسلام حضارة إنسانية يوم احترم الانسان منذ أربعة عشر قرنا حين سحب الغرب أو العصر الحديث، السجادة من تحت قدميه... إن أزمة الإنسان المعاصر، أنه أبعد من الصورة. أصبح إنسانا نمطيا، حين لايميز إنسانا عن آخر إلا صفة فريدة فيه.

الإسلام موهبته أنه مضاد للعقلية الحشرية والحشدية. إن اعتماد الإنسان على الله يشد المرء إلى سلطة أخرى غير سلطة الدنيا. ودون مسئولية الفرد أمام الله تصير الأخلاق أمورا تواضعية.

مرة أخرى أشير إلى «يونج» فى قوله (نحن الأوربيين نتمنى أن نتسلق قمة ديانة فلسفية ولكننا عاجزون لأننا حديثو عهد بالتحضر... قصارى مانصل إليه، أن ننمو إليها... ننمو فى اتجاهها.)

ويتساءل فلهلم Vellhilm لماذا نترجم عن الشرق ونتعرف على الشرق؟ إنها حاجة الأوربى إلى الجانب الروحى فى نفس الإنسان.

إننا إذا ضممنا آيات الشورى فى القرآن الكريم، إلى آيات المجادلة الحسنة فإننا نلمح حض القرآن الكريم على وجوب **دور الرأى العام**... وأن الرأى العام كما يقول الشيخ محمد أبو زهره فى كتابه (التكافل الاجتماعى فى الاسلام) له رقابة نفسية.

ومعنى هذا أن الرأى العام له رقابة نفسية، أنه إذا صلح، هذب الآحاد والجموع، وإذا فسد وتقاعس، فسد المجتمع.

جهلوا الإسلام فهاجموه والناس أعداء ماجهلوا حتى لقد اعترفت وثيقة الفاتيكان – تم طبعا إثر اجتماع مجمع الفاتيكان الثانى والتى طبعت للمرة الثالثة سنة ١٩٧٠ Orienta-tions pour un Dialogue entre Chretiens et Muslums التى تناشد العالم المسيحى أن يقيم حوارا بينه وبين المسلمين...

ودعت الوثيقة فى روح إنصاف، إلى استبعاد «تلك الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة.»

لقد قوى الإسلام بعد الحرب المادية، على حرب معنوية لم يواجهها دين آخر... ولكن الحرب هنا لون من التقدير المعكوف أو المدح الملفوف كما يقول الأستاذ العقاد فى العداوة.

إن «دانتى» على شدة عداوته للإسلام من منطلق عصره الوسيط، والحروب الصليبية – التى تمسحت باطلا فى المسيحية والمسيحية السمحة منها براء –

دانتى مع إقرار الكثيرين من الباحثين بتأثره بالتراث الإسلامى، بل بالإسراء والمعراج فى ملحمته «الكوميديا الإلهية» دانتى هذا، لم يقو على إنكار تقديره للفلسفة الإسلامية وفلاسفتها خاصة ابن سينا، وابن رشد اللذين أنزلهما منزلة فكرية عالمية تركت بصمتها على الفكر الإنسانى.

ومن الطريف، أنه حين أقر فلسفتهما، أنكر عقيدتهما!! حتى أدخلهما الجحيم، ولكن فى أولى مراحله حيث **لا** عذاب **ولا** دموع، ولكن زفرات وحسرات!!

ويظل الإسلام بعد هذا كله: دينا وحضارة: شعائر وشرائع دين العقل الحر والإنسانية الكاملة.

إن عبقرية الإسلام فى اعترافه بالحضارات كالأديان... لم يكن موقفه الرفض بل القبول... وهو علاقة قوة ووثوق وتفتح وانفتاح.

لقد خرج الإسلام من بيئة بدوية بدائية ثم انتقل إلى بيئات حضارية معرقة فى المدنية كمصر وفارس... فلم يدع ولم يهدد ولم يبدد بل حفظ وصان وأضاف وأذاب رهبة الخوف أو التهيب أو التحفظ على أقل تقدير... بل من سماحته وعالميته، أنه اعتبر نفسه **دولة عامة يقوم بها المسلمون جميعا** حتى **عاصمته السياسية سرعان ما انتقلت من موطنه الأصلى إلى الأوطان الأخرى فهى دمشق وهى بغداد وهى القاهرة.**

مهما اختلفت الآراء فى الحضارة الإسلامية أو أصالتها فمن المؤكد أنها كانت الشعاع الذى بدد ظلمات أوربا ففتحت عينيها على معالم جديدة للحياة الخصبة المزدهرة بمجد العلم ونور الفن وآيات المدنية. تقول الكاتبة الألمانية سيجريد هونكه فى كتابها: (شمس الله على الغرب): (لم يعد سرا أن مصر هى الوطن الذى بزغ فيه فجر الضمير ومنها أخذ

اليهود ما أخذوا، وأن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة... وأخرجوا أوربا من الظلمات إلى النور).

أقول: مهما يكن من أمر فإن أشد الناس تعصبا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية وترتبت على ظهور **الإسلام**.

ولايمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية.

obeikandl.com